فقوسية

في الوقت الذي نرفض استحضار الماضي بصيغة

لغة معمارية للمنظور الحضاري

جامع الدولة الكبير

الناقد المعماري
برنار ويت

ترجمة : ناصرة السعدون

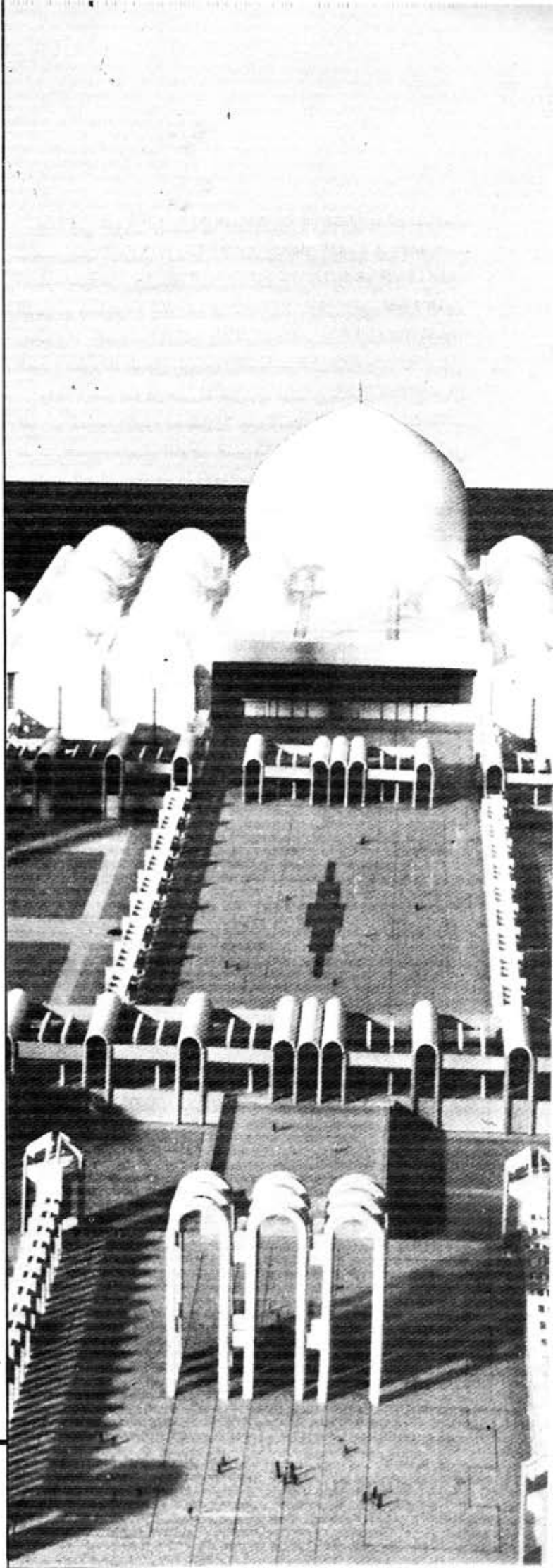

مقطع من تصميم محمد صالح مكية

الاستنساخ كذلك نرفض الصلة بالحاضر بصيغة النقل.

الرئيس القائد صدام حسين

● تقديم المترجمة

في شهر تشرين الاول ١٩٨٤، يكون قد مر عام على الندوة العالمية لجامع الدولة الكبير، التي اقيمت برعاية وتوجيه خاص من السيد الرئيس القائد صدام حسين خلال الفترة ٢٩-٣١/١٠/١٩٨٣.

هذه الندوة بقدر ماكانت تبحث عن موضوع يتعلق بالقطر العراقي، الا ان آثار صداها العالمي لاتزال باقية حتى الآن، ولم يكن ذلك ببعيد عن ذهن القائد الفذ حين قال:

«اننا لانكتفي بالمداولة وانما نطمح دائماً لكي نكون عنصراً قيادياً فيها بما هو مبتكر، ولنرفد الحياة بالمتجدد ليس على صعيد العراق فحسب، وانما بالتفاعل والقنوات المفتوحة على مستوى العراق والوطن العربي وعلى مستوى الانسانية عموماً ...».

كانت الندوة تحمل في تأثيراتهاسمتين اساسيتين:

الاولى: النظرة الى المسألة الدينية نظرة عصرية، فلقد اشر السيد الرئيس القائد هذه النظرة بقوله:

«...في الوقت الذي نرفض الماضي بصيغة الاستنساخ، كذلك نرفض الصلة بالحاضر بصيغة النقل ...».

الثانية: الربط الكامل بين المنظور الروحي والمنظور المادي من خلال تداخل فلسفة العمارة بالنظرة الى الدين، والربط الواعي بين الفن المعماري من جهة ثانية، بالاضافة الى ارتباطه مع البيئة والارث التاريخي اللذين بهما يعيش ويتطور.

من هذا المنطلق، لم يكن المقصود باقامة جامع الدولة، انشاء صرح متميز بحجمه وسعته فحسب، انما كان التميز المطلوب هنا في الفن المعماري المتفاعل والمعبرا عن روح العراق الجديد الذي يستمد جذوره من الماضي العريق، ويتطلع الى المستقبل الزاهر، وكما عبر عنه الرئيس القائد:

«.. انالبناءينبغي ان يكون متميزاً في معناه كذلك في حجمه وسعته ...».

ان الترابط الذي تحقق خلال الندوة بين الفلسفة الدينية والسياسية من جهة والمسألة المعمارية من جهة اخرى وعلاقة كل منهما بالاطار الحضاري والواقع اليومي، كان له تأثير بعيد المدى دفع العديد من المعماريين الى ان ينقلوا الى العالم الصورة الحضارية للعراق الجديد في طروحات علمية سواء في المجالات المتخصصة او في الادبيات الاكاديمية.

ولقد خصصت مجلة «معمار MIMAR» الفصلية في عددها الحادي عشر الصادر في كانون الثاني - آذار ١٩٨٤ ملفاً خاصاً عن مسابقة جامع الدولة الكبير استعرضت فيه

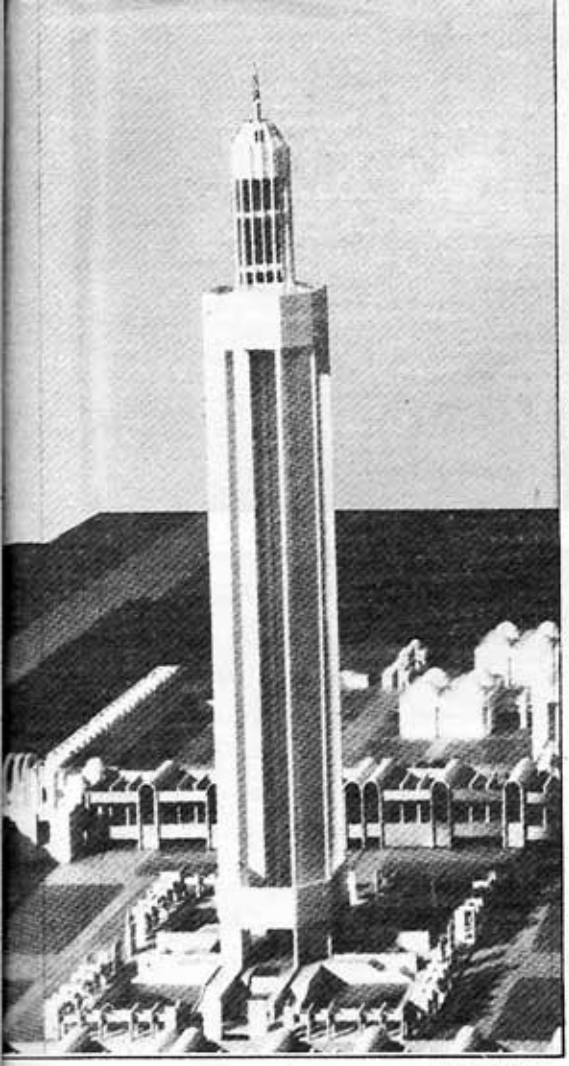

المئذنة - مقطع من تصميم مكية

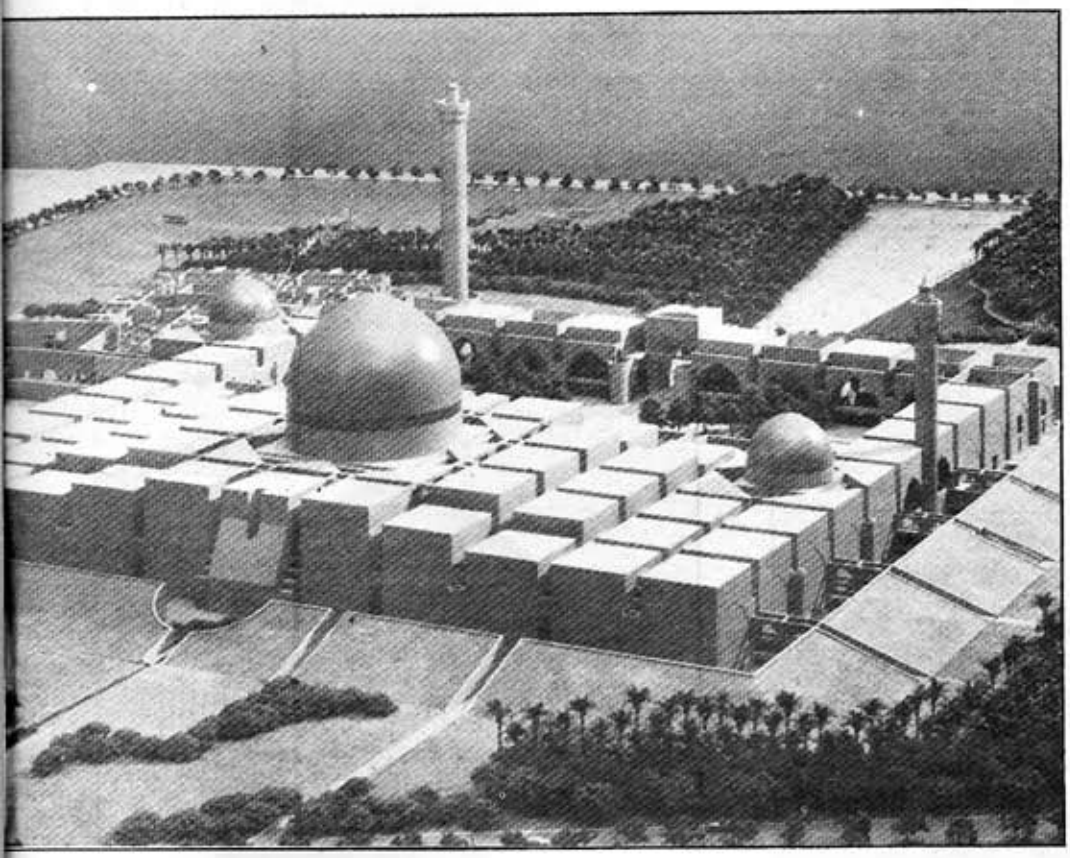

تصميم - راسم بدران

هل يمكن
ان يتعايش شكلان
معماريان يرمزان الى قيم
متناقضة كلياً
في المدينة
الحديثة؟

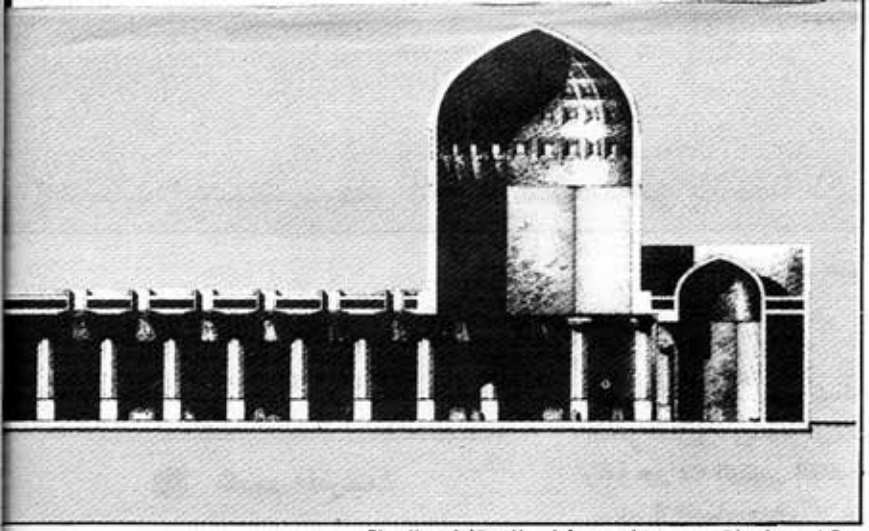

مقطع عرضي لتصميم ريكاردو بوفيل ـ الاستشاري العراقي

اوليات تنظيم المسابقة والمشاريع الستة التي صممها كل من السادة : ريكاردو بوفيل ، معاذ الآلوسي ، روبرت فنتوري ، دنيس سكوت براون ، راسم بدران ، محمد مكية وقحطان المدفعي . وهي المشاريع التي عرضت على السيد الرئيس القائد صدام حسين في الندوة . بالاضافة الى تقديم الندوة للتقييم النقدي لهذه المشاريع للناقد المعماري الفرنسي «برنار ويت Bernard HUET» الذي كرمته الحكومة الفرنسية كأحسن ناقد معماري لعام ١٩٨٣ والذي كان ضمن المشاركين في الندوة .

هذا التقييم يعبر بالتأكيد عن رأي كاتبه ، لكنه يبقى في اطار الاسس والمبادىء والتوجهات التي افرزت هذا الحدث التاريخي والفلسفي في الوقت الذي يخوض فيه شعبنا باجمعه معركة الدفاع عن وجوده وكيانه .

ملاحظات نقدية
عن المشاريع المقدمة
لأنشاء جامع الدولة الكبير

انشاء جامع الدولة الكبير في بغداد يرتبط بثلاث مسائل جوهرية هي :

١ـ الطبيعة الرمزية للنصب .
٢ـ سمة الصرح الدينية .
٣ـ الصيغة الشكلية الاكثر ملاءمة .

● الطبيعة الرمزية للنصب :

بالامكان صياغة مسالة الطابع الرمزي لجامع الدولة بوضوح تام . فهذا النصب الاستثنائي يجب ان تمتد جذوره في التقاليد ، كما يجب ان يرمز الى تطلع الشعب العراقي لمستقبل روحي وخلقي ، بالاضافة الى التقدم المادي .فالنصب ينبغي ان يشيد في موقع مركزي للامة ، ليكون رمزاً للتعاضد والوعي الاجتماعي ولوحدة الامة .

من ناحية اخرى ، ان فخامة التعبير عن هذه المنهجية تقدم عدة بدائل او خيارات قد تكون نتائجها متناقضة اصلاً . يمكن تحقيق الفخامة بدءاً ، من خلال موقع الجامع في المدينة والعلاقات التي تنشأ بينه وبين الصروح الاخرى فيها . فتفرد الموقع وعزلته وتوسطه تضفي الفخامة على الموضوع المعماري . كان مؤسسو المدن الرئيسة في التقاليد العربية ـ الاسلامية يعمدون الى بناء الجامع الكبير في المركز الهندسي للمدينة ، ومن ثم يعتمدون من هذا المركز محوراً للتصميم الحضري ، ويمكن اعتبار بغداد

تفصيل ـ بوفيل

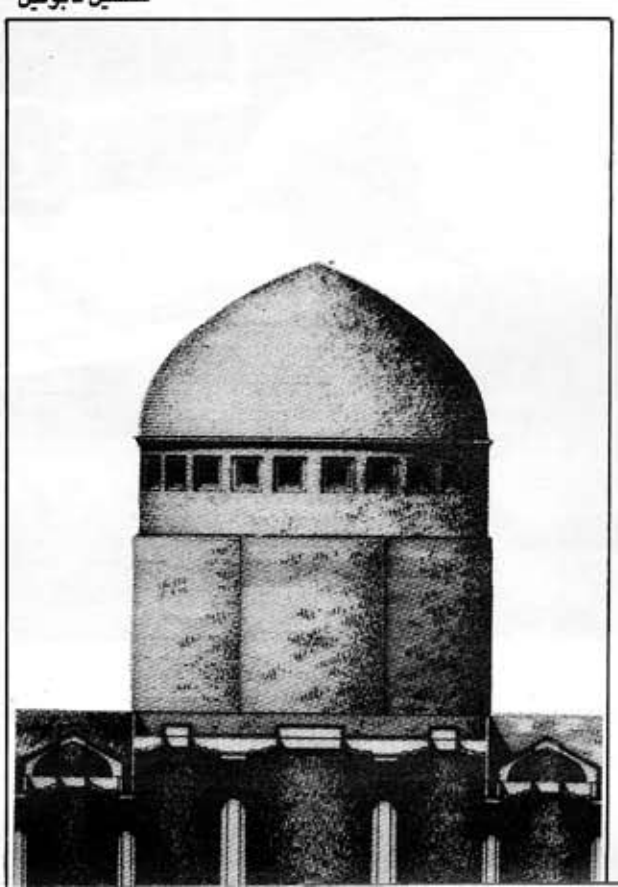

نموذج من تصميم فنتوري، راوخ سكوت براون

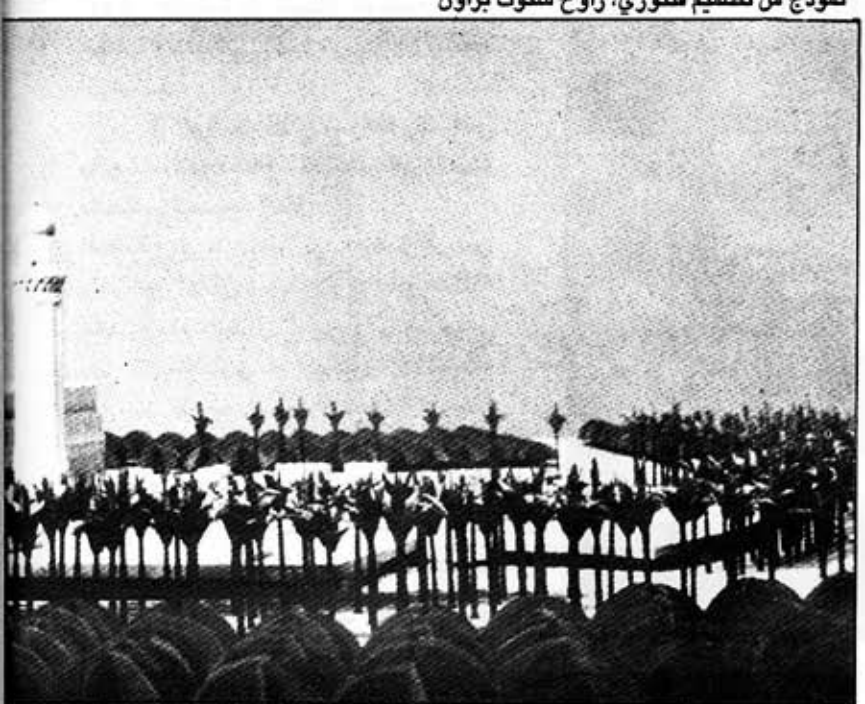

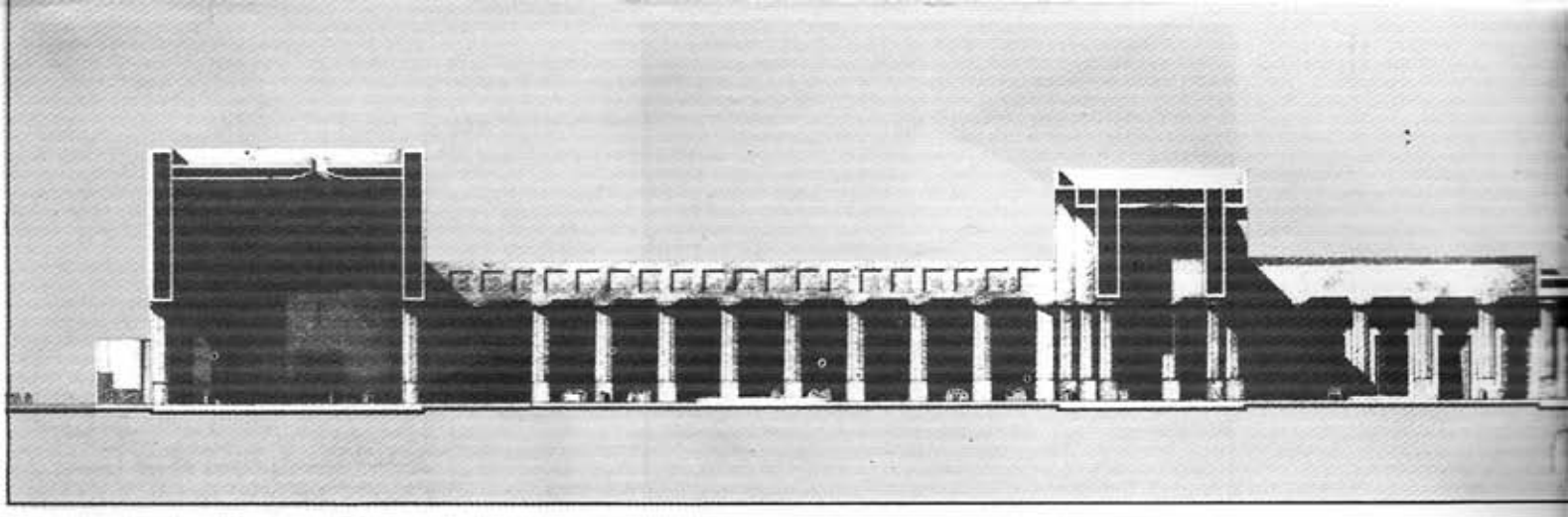

المنصور النموذج الاصلي لهذا النوع من ستراتيجية التخطيط.

عزل الخلفاء العباسيون جامع الدولة عما يحيط به، مما اضاف المزيد على مهابته، في نفس الوقت لم يكن ذلك فصلاً للجامع عن المدينة نفسها، بل بالعكس كان تأكيداً لتموضع المؤمنين ببعدٍ متساوٍ حول الرمز الاكثر اهمية فيها.

الموقع المختار لهذه المسابقة شاسع، لكنه منعزل عن المدينة. ولتحاشي وضع جامع الدولة في قلب بغداد فبالامكان التصور بان هذا الموقع يمكن ان يدعم احد اهم مراكز تطوير مدينة بغداد الكبرى، او ان يصبح الجامع نقطة البداية لاعادة التنظيم الجذري للاطراف الحضرية فيها. ان الموقع الحالي يعطي بالتأكيد فرصة اكبر لعرض النصب، الا ان الطبيعة المركزية له وحتى توظيفه قد يواجهان بمعوق الابتعاد المكاني وانعزاله عن المناطق الاكثر نشاطاً في المدينة.

فيما يتعلق بميزة الفخامة الذاتية للبناء فهي تعتمد على تحقيق اهداف عدة يمكن الوصول اليها سواء لكل هدف على حدة او مجتمعة، وصولاً لأقصى فخفخة. هذه السمة الاخيرة للاسراف في استخدام المؤثرات يتضمن على الدوام مخاطر كبرى، قد تصل الى حد النقيض لفكرة الجامع في تراث الفكر الاسلامي التقليدي. يمكن تحقيق الفخامة عبر المقاس الضخم مثل الارتفاع، المسقفات، حجم الصرح. وهذه هي الميزة الوحيدة لمشروع السيد مكية والى درجة اقل في مشاريع كل من السيدين فنتوري وبوفيل.

كذلك يمكن تحقيق تأثير المباهات والفخفخة المظهرية بخلق منظومة ذات تكوين محوري تؤدي دور التناظر والتأثير المنظوري ولتعزيز التدرج البصري للحجوم وخضوعها لمركز مهيمن، وهذا واضح في مشروعي السيدين بوفيل والمدفعي. الا ان صيغة استخدام الغرابة في ترتيب الامكنة نادراً مااستخدم في التقاليد العربية، وقد وقع بعض المتسابقين في خطأ التأثر بتاج محل - وهو ضريح وليس بجامع - بناه ملك يهدف الى تمجيد سلالته، وهذا ليس من الاسلام بشيء من ناحية الايمان.

مع هذا فالوصول الى الخصوصية في الفخامة قد يتحقق بتراكم التزيين والزخرفة الثرة التي تميل نحو اشباع سطحي للمكان، ونجد شيوع استخدام هذه المؤثرات بشكل خاص في التقاليد العربية - الاسلامية في العراق نفسه (في كربلاء، الكوفة او بغداد). تستند مشاريع السادة مكية، فنتوري والمدفعي على هذا التقليد بشكل واضح، الا انها تتناسى ان العمارة العربيةتحتفظ بهذا الغنى الزخرفي للاماكن المسورة التي لاتشاهد الا لمحاً وعبر البوابات والامكنة

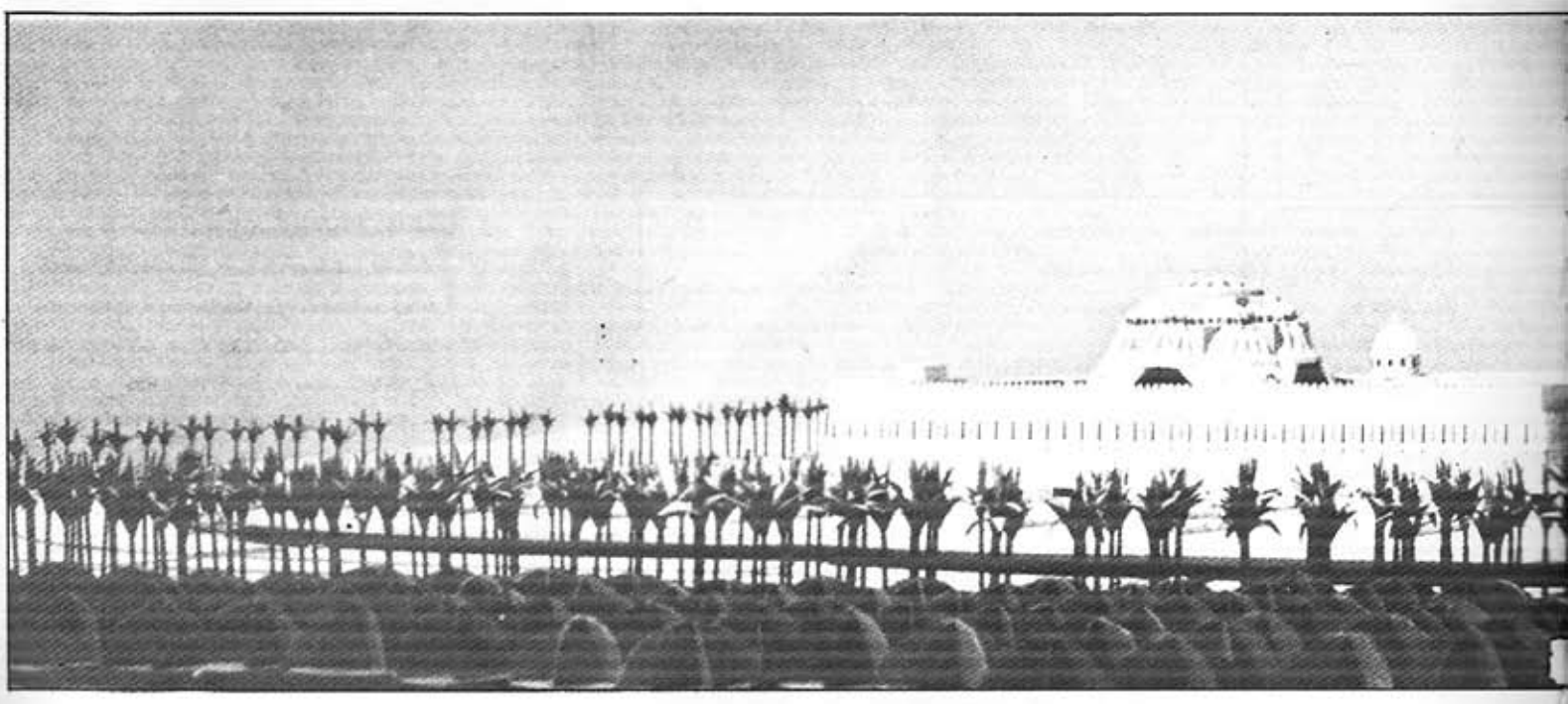

المسورة مثل المآذن والقباب .

أخيراً هناك وسيلة واحدة لتحقيق الفخامة شائعة كثيراً في تقاليد العمارة العربية دون الالتجاء الى المقاسات الضخمة والثراء الزخرفي الخارجي . وذلك باستخدام الترتيب الغني للمساحات البسيطة ، التعددية، تنوع المشاهد، استكشاف العظمة والكمال الهندسي للحجوم المختلفة، التوازن الدقيق للمواد في زخرفتها والوانها. فمشروع السيد بدران يتصف بسمة عدم المباهاة المذكورة، وتبرز هذه السمة بشكل اكثر وضوحاً في مشروع السيد الآلوسي.

● سمة الصرح الدينية :

المسألة الثانية التي يطرحها انشاء جامع الدولة هي الاختيار بين البقاء ضمن حدود النمطية التي لم تتغير عبر القرون ، او امكانية تجاوز هذه النمطية ..

نشأت نمطية الجامع ، وبشكل واضح ، في فترة مبكرة من تاريخ الإسلام . فشروط صلاة الفرد والجماعة تحددت بشكل صارم في النصوص الكريمة . وكانت على الارجح حاسمة في خلق العديد من السمات الاساسية لأنماط الجوامع الاولى .

فالدعوة للصلاة ومراسم التطهر وتعريف المجالات ذات القدسية والتوجه نحو الكعبة ، وتراص صفوف المصلين بتواز لجدار القبلة وخلف الامام .. كل هذه العناصر شكلت المحددات الهندسية ووضحت مخطط الجوامع الاولى . الا انها كانت غير كافية لتوضيح شكل او اهمية بعض الامكنة الضرورية (كالفناء مثلاً) ،كما انها لم تثبت وجود بعض العناصر الرمزية مثل القبة او المحراب او القوس. لذلك تطورت حول هذه المساحات والعناصر المعمارية التكوينات على العناصر الاولى ، مما يمكن ملاحظته في مختلف الثقافات الاسلامية عبر التاريخ .

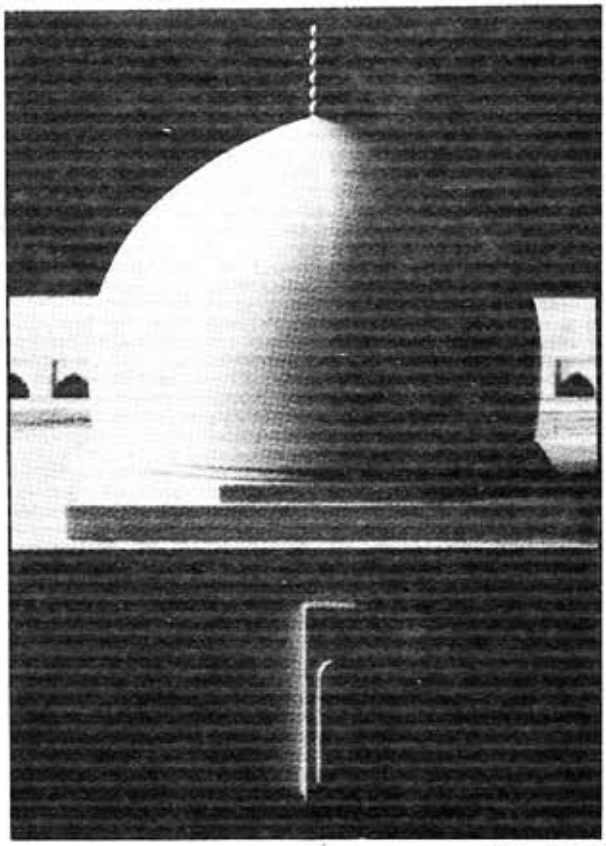

تفصيل ـ الآلوسي

الجهد الرئيسي للمعماريين ينبغي ان يكون منصباً على التعرف على العناصر الرئيسة للتراث ، وبالاخص المفهوم الاسلامي العربي للمكان ..

تفصيل ـ الآلوسي

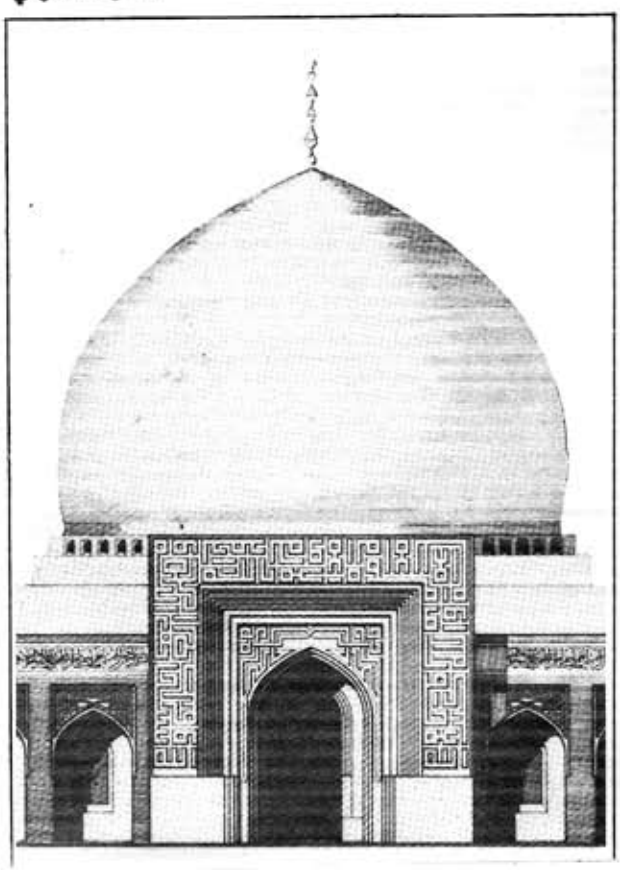

تصميم معاذ الآلوسي

ومع ذلك ، قد يتساءل البعض : هل بالامكان التجاوز لأبعد من ذلك ، والعمل على نهج العمارة الحديثة في فرض ارادتها وتجاوز النمط التقليدي وصولاً لأنماط مبتكرة؟ الاجابة هي النفي بالتأكيد، لأن المهمة الاساسية للصرح الديني هي الديمومة والبقاء ولا يمكن «تحديثه» لأنه خارج الزمن والتاريخ . فنمطية الجامع هي اكبر بكثير من التصرف المكاني لان السمات الرمزية لمساحاته هي من متطلبات قيام المؤمن بأداء شعائره .

عظّمت اغلب المشاريع المقدمة للمسابقة من حجم القبة كرمز للجنة والله نفسه ، في حين انها لم تكن ابداً الفكرة الرئيسية المهيمنة في شكل الجامع (بخلاف بعض انواع الكنائس المسيحية) ، ذلك ان احدى الخواص الهندسية للقبة ـ قوتها المركزية ـ تناقض التصاف والتوازي الهندسي اللازم لتكاتف المؤمنين في صلاة الجماعة ، متوجهين الى القبلة . احد المشاريع ـ مشروع السيد مكية ـ ذهب الى حد استخدام القبة لتحويل حائط القبلة الى مكان فسيح ، وهذا في الحقيقة تناقض لروحية نمطية الجامع .

الحداثة في رأيي تشمل العودة الى الجوانب الاساسيةللنمط الاولى لقاعة الصلاة .

فيما يخص الباحة التي تسبق الرواق والتي تستخدم ايضاً للصلاة، يجب ان تتسم، كما هو معروف، بكونها مغلقة ومستقلة، محمية من الخارج، ومن الناحية الهندسية هي انعكاس لقاعة الصلاة المذكورة.

حورت فكرة الباحة بشكل جذري في العديد من المشاريع المقدمة ، اما بسبب الرغبة في التحديث او سوء فهم للموضوع فقد جعلها السيد مكية ساحة فخمة مفتوحة للرياح ، وعاملها السيد فنتوري بشكل قاعة عمومية مغطاة بقبة بينما اعطاها السيد المدفعي شكل حديقة تؤدي دوراً انتقالياً مابين قاعة الصلاة والابنية المجاورة، واخيراً حافظ السيد بدران بشكل اكثر براعة على السمات الهندسية للباحة الا انه اضعف من استقلاليتها وانعزالها كساحة قائمة بذاتها ، واعطاها وظيفة منطقة توزيع لملاحق الجامع .. فقط، بينما اعاد السيدان بوفيل والآلوسي للباحة سمتها الحقيقية كغرفة مفتوحة للسماء ومساحة تقود المؤمن الى الصلاة ، وصممّاها لأداء الصلاة في نفس الوقت . وقد لوحظ ايضاً اختفاء او تحوير اماكن الوضوء التي تصاحب او تسبق الصحن وتحولت الى «مرافق صحيحة حديثة» في جميع المشاريع عدا مشروع واحد (مشروع الآلوسي) ، الأمر الذي يعني بان

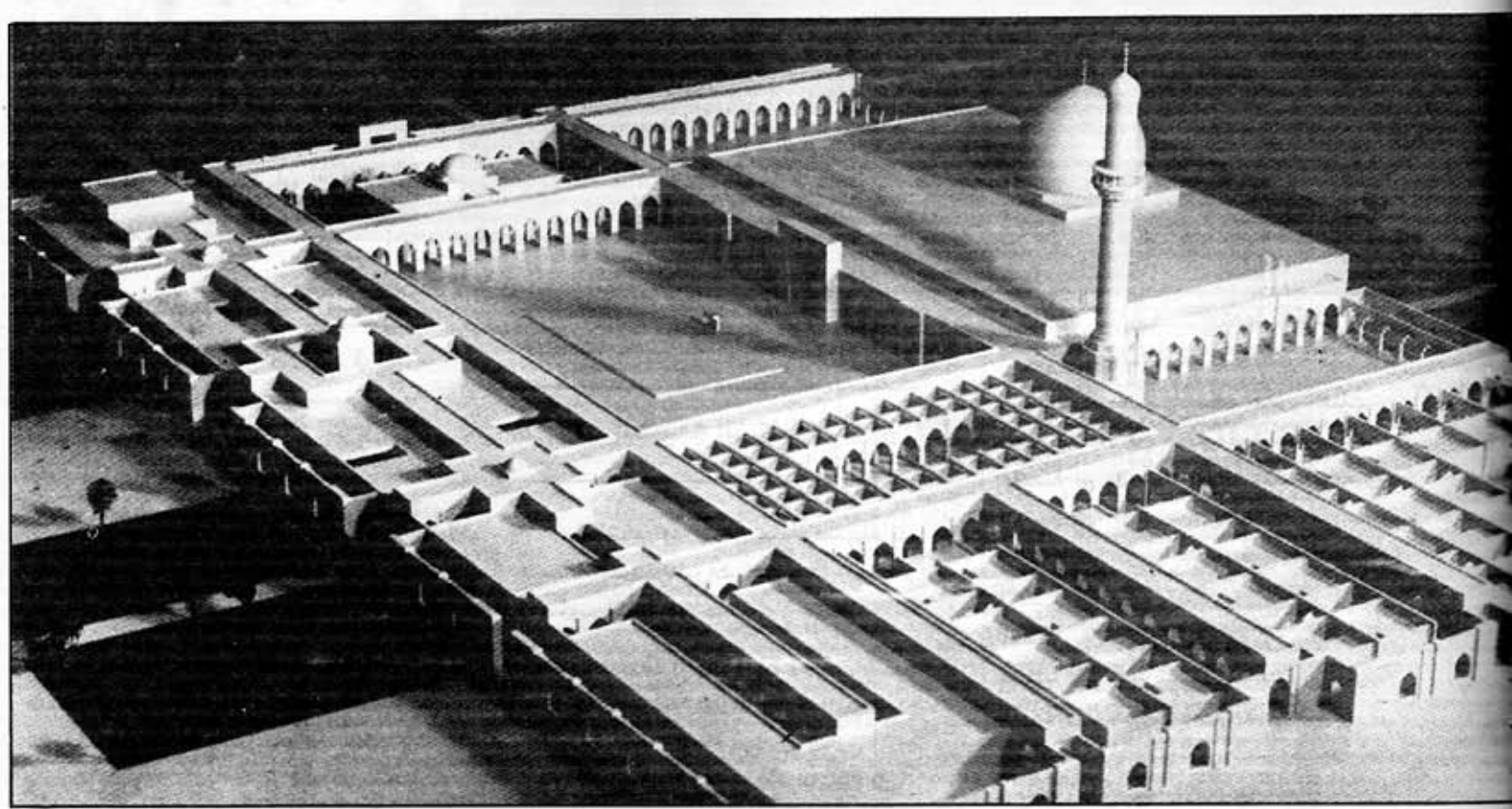

تلك المشاريع انزلقتها الى المستوى الصحي بكل بساطة او اهملتها كلياً . بعكس ذلك نجد ان العديد من المشاريع تضمنت احواضاً تزينية كرمز يجسد الماء ، دون الادراك بان فعل النظافة بالذات هو الرمز الذي يمنح اكبر تأثير . وللمزيد من الاقناع بهذه المسألة، يكفي القاء نظرة على العديد من الامثلة الرائعة لاماكن الوضوء في الجوامع على امتداد العالم الاسلامي سواء في تركيا ، الهند ، اليمن ، مصر أو المغرب.

اضافة لكل ماتقدم اود ان اثير مسألة نوقشت بشكل واسع ، الا وهي موضوع المأذنة .

تقوم المأذنة طبعاً بدور الدعوة للصلاة ، وهي بارتفاعها الشاهق تمثل رمزاً . في المدن القديمة كات المآذن تهيمن على جميع الابنية الاخرى المحيطة بها وتبرز التدرج الهرمي للقيم التي قام عليها المجتمع الاسلامي . اما اليوم ، فالحداثة الغربية بقيمها المادية المستندة على المال والاستهلاك ، افرزت لنا هذه المدن ذات الابنية الشاهقة لاستخدام البيروقراطية ورجال الاعمال ، وهدمت بالتالي المنظور البصري للقيم الروحية التي هيمنت في السابق على المدينة . التساؤل الذي يفرض نفسه بالتالي هو هل يمكن ان يتعايش شكلان يرمزان الى قيم متناقضة كلياً في المدينة الحديثة؟ هل يمكننا بناء المأذنة اعلى من ابراج المكاتب؟ ام انه يتعين على السلطات السياسية ان تضع القواعد التي تحدد ارتفاع الابنية وبشكل يفرض بوضوح شعوراً بتدرج فخامة الابنية في المدينة حسب اهميتها ، كما كانت عليه الحال في المدن القديمة للعالم العربي - الاسلامي؟ هذا الحل الاخير هو في رأينا الاشمل والاصعب لكنه ، في ذات الوقت ، الاكثر شجاعة ، ويمكن بالتالي لهيئات التخطيط الحضري في العراق ان تتبناه .

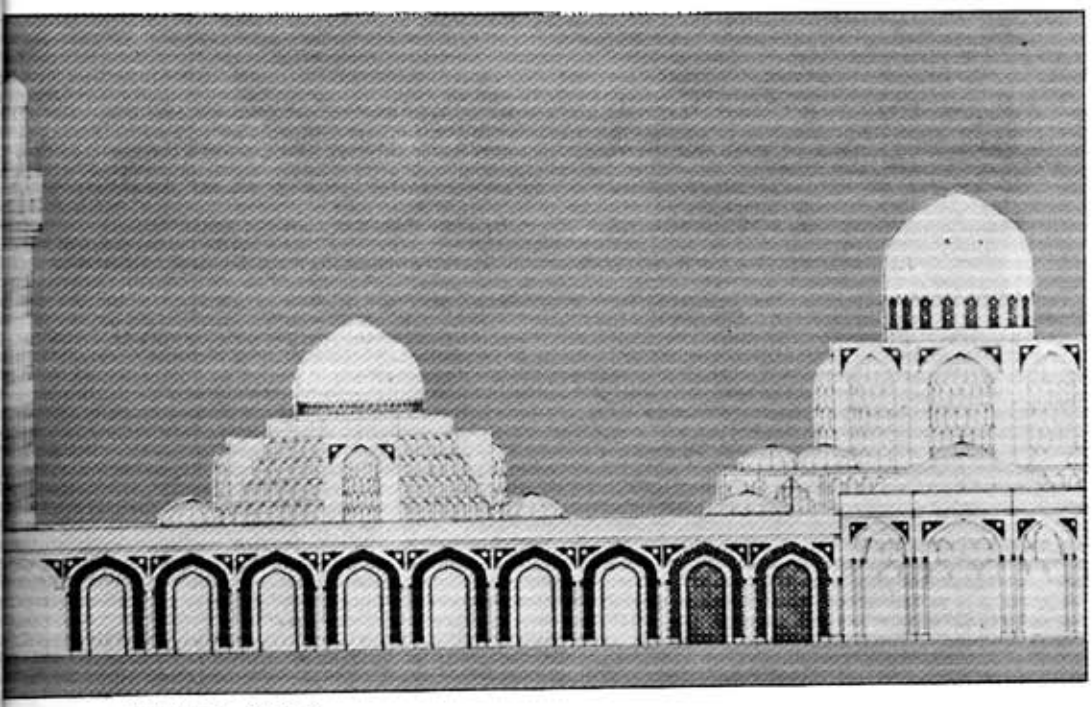

الواجهة - قحطان المدفعي

● الصيغة الشكلية :

في الختام اود ان اوجه الاهتمام الى مسألة العودة للتراث ، من خلال اختيار الاسلوب المعماري .

هذه المسألة ليست دينية فحسب ، حيث انها تغطي مجالاً ثقافياً شاملاً للمجتمعات العربية- الاسلامية ، ولابد له من اثبات وجوده في مواجهة الامبريالية الثقافية للدول الصناعية . في هذا الصدد تشترك كل من الاشتراكية الشرقية والامبريالية الغربية في بعض الامور. فمثلاً العودة الى التراث واحياؤه مجدداً لاتعني القيام بلعب سطحي بالاساليب المتوارثة ، عباسية كانت هذه الموروثات او غيرها . وهذا امر أثّر على العديد من المشاركين بالمسابقة . فلعبة الاسلوب الموروث ليست مرفوضة اخلاقياً لذاتها فحسب ، ولربما هي خطوة لايمكن الاستغناء عنها لتأكيد الاختلافات الظاهرة عن حداثة البلدان المتقدمة ، او امكانية اعادة الاعتبار للتراث الوطني في نظر بعض الفئات العربية ، الا ان هذه المحاولة قد تصبح عقيمة او حتى سلبية اذا ادت الى تمويه الواجهات التي تحدد الامكنة وهي بحد ذاتها منطق غريب عن الحضارة العربية - الاسلامية مثلاً . عليه فالجهد الرئيس للمعماريين ينبغي ان يكون ، وببساطة ، منصباً على التعرف على العناصر الرئيسة للتراث وبالاخص المفهوم الاسلامي العربي للمكان، هذا المفهوم الذي يتميز بخصوصية، محددة ، بالاضافة الى كونه نمطاً للانتاج وتأثيراته الاجتماعية والاقتصادية ، من وجهة النظر هذه ، تربط المشاريع المقدمة ارتباطاً ضعيفاً مع المفهوم العربي للمكان .

المشروع الوحيد الذي تنعكس فيه الموضوعية هو مشروع السيد الآلوسي ، باستخدامه تعددية وترتيب الامكنة ، وقبل كل شيء يقدم لنا السيد الآلوسي منهجاً يستغني فيه بسهولة عن الايحاءات الشكلية الثقيلة ويهدف في نهجه هذا للوصول الى الاساس في خلق التعبير المناسب لعصرنا .